المحاضرة السّادسة: شعر النقائض

أوّلا– تعريف النقائض:

1 1 – لغة:

جاء في معجم لسان العرب لابن منظور " النَّقْضُ: إفسادُ ما أَبْرَمْتَ من عَقْدٍ أو بناء، وفي الصحاح: النَّقْضُ نَقْضُ البِنَاء والحَبْلِ والعَهْدِ. والنَّقْضُ: اسم البناء المنقُوضِ إذا هُدم. والمناقَضَةُ في القول: أن يُتكَلَّمَ بما يتناقض معناه. والنَّقِيضَةُ في الشِّعْرِ: ما يُنْقَضُ بهِ، وكذلك المناقَضَةُ في الشِّعر يَنْقُضُ الشّاعر الآخرُ ما قاله الأوّل، والنَّقِيضَةُ الاسم يُجمع على النَّقائض".

1 2 – اصطلاحا:

لابدّ من الإشارة أوّلا إلى أنّ النقائض فنّ أصيل ظهرت بوادره الأولى منذ العصر الجاهلي، حيث ارتبط بفنّي الهجاء والحماسة، لكنّه أخذ في التطوّر والظهور بشكل لافت للانتباه في عصر بني أميّة نظرا لتطوّر الحياة آنذاك، واستعار نار العصبية القبلية بين الأحزاب السياسية والقبائل ممّا أدى إلى ظهور فنّ النقائض، والنَّقِيضَةُ من المنظور الاصطلاحي عبارة عن " قصيدة يَرُدُّ بها شاعر على قصيدةٍ لخصمٍ له فَيَنْقُضُ معانيها عليه: يَقْلُبُ فخر خصمه هجاء، وينسب الفخرَ الصّحيح إلى نفسه هو. وتكون النّقيضة عادة من بحر قصيدة الخصم وروِّيها".

ثانيا– طبيعة المناقضة:

تكون النقائض شعرا، وقد تكون رجزا، وتُسمّى المراجزة، وتكون نثرا أيضا، وتتوافر فيها وحدة الموضوع، وتقابل المعاني، وتتضمّن كذلك الفخر والهجاء ثمّ الوعيد أيضا، وقد تجمع المناقضة بين فنّي الشّعر والنثر معا كما كان بين خُفاف بن عُمير السلمي وعباس بن مِرداس

ثالثا– مقوّمات النقائض: تقوم النقائض على عدّة مقوّمات كانت سندا ومُتّكأ للشعراء منها ينهلون مادة نقيضتهم، في الفخر او في الهجاء، ومن تلك المقوّمات نجد:

3-1- **الأنساب**:نقصد بالنسب القرابة من جهة الآباء، والعناية بالأنساب كانت منذ الجاهلية وهي الأساس في تكوين العصبيات القبلية أو الجنسية احتفاظا بالقربى، وحفاظا على الوحدة

3-2-أيام العرب: نقصد بأيام العرب وقائعها، وسُمّيت بذلك لأنّ الحروب كانت نهارا، وكانت للعرب أياما في الجاهلية وفي الإسلام وحتى العصرين الأموي والعباسي، فيعمل شعراء القبائل على تتبّع تلك الأيام وما وقع فيها ليتّخذوا منها مادة لنقائضهم، ويترصدون فيها سقطات الخصم وقومه.

3-3- **الدّوافع الشخصية**: وهي الدوافع الخاصة التي ينطلق منها الشّاعر في مناقضته للشّعراء الآخرين، وكانت في مجملها رغبات خاصّة في التفوّق والانتصار على الآخر.

3-4- الانتماء السياسي: يعمد الشّعراء المنتمون إلى حزب ما إلى الدفاع عنه وعن أنصاره من باب الموالاة لا غير.

رابعا– نشأة النقائض:

ظهرت البواكير الأولى لفنّ النقائض منذ العصر الجاهلي، فكما تضارب شعراء القبائل المتحاربة بالسهام، تضاربوا بالشعر أيضا، وكانوا يتهاجون ويناقضون بعضهم البعض ، فينتصر الشّاعر لقومه ويردّ عليه شاعر القبيلة المعادية، ولئن كانت في نشأتها الأولى لم تأخذ صورة النقائض، وكانت عبارة عن منافسات كلامية بين شعراء القبائل، وبمجيء الإسلام تغيّرت كثيرا من الموازين، فكانت النقائض الإسلامية امتدادا للنقائض الجاهلية من حيث أصولها الفنية، فازدهرت في عصر النبوة المساجلات والمنافسات الكلامية التي كانت بين أنصار الرسول –ص– ومشركي قريش، حيث أدّى هذا الصّراع إلى نشوب النقائض، فانبرى الشّعراء يدافعون عن الرسول –ص– وعن الإسلام فصار الإسلام موضوعا للنقائض مكان العصبيات القبلية في الجاهلية سابقا وفي الدولة الأموية لاحقًا، ثمّ تطوّرت في العصر الأموي فاتّخذت شكل المناظرات، وكان سوق المربد بالبصرة مسرحا لها، فيذهب الشّعراء هناك

، ويذهب النّاس إليهم ويتحلّقون من حولهم، ليروا من تكون له الغلبة على زميله، فتكاملت أسسها على يدّ جرير[1] والفرزدق[2] والأخطل[3].

خامسا– دوافع ظهور فنّ النقائض:

هيّأ استعار العصبيات في البصرة وخراسان إلى استعار الهجاء طوال العصر الأموي، كما هيّأ لنمو فنّ النقائض، وقد أعدّت لهذا النمو عوامل كثيرة، منها[4]:

5-1-**دوافع سياسية**: ترجع إلى تشجيع خلفاء بني أميّة لهذا الفنّ بُغية صرف النّاس عن السياسة وأمور الحكم، حيث كان خلفاء بني أميّة يعمدون إلى وسائل لحفظ مُلكهم، والإبقاء على سلطانهم، فعمدوا إلى إثارة العصبيات، وبعث الخصومات

5-2-دوافع اجتماعية: نظرا لتطوّر الحياة آنذاك وظهور الحواضر والمدن الكبرى، كان المجتمع العربي في البصرة في حاجة إلى ضرب من الملاهي يقطع به النّاس أوقاتهم الطّويلة

---

[1]هو جرير بن عطيّة الخَطَفِي. والخطَفي لقب، واسمه حُذيفة بن بَدْر بن سَلَمة بن عَوْف بن كُليب بن يَرْبُوع بن حنظلة بن مالك بن زيد بن مناة بن تميم بن مُرّ بن أُدّ بن طابخة بن إلياس بن مُضر بن نزار. ويُكنّى أبا حَزْرَة. ولد بقرية أثيفية إحدى قرى الوشم من أرض اليمامة حوالي سنة 30 للهجرة من أبوين ينتسبان إلى قبيلة كليب، ولد جرير في بيئة بدوية يتوارث أبناؤها الشّعر كأسرة زهير بن أبي سلمى، وقضى صباه وشبابه ترعية يرعى غنم أبيه في وادي المروت، اشتهر بالهجاء، وقد بلغ جرير ريعان شبابه حينما التحم بالهجاء مع الفرزدق شاعر تميم الكبير، فاستمرا يتهاجيان قرابة أربعين عاما. وقال ابنُ دأْب: الفرزدق أشعرُ عامّة وجرير أشعر خاصّة. توفي جرير سنة 114هـ في إحدى قرى اليمامة، وخلّف شعرا في المدح و الرّثاء غير أنّ الهجاء كان له القسط الأكبر من ديوانه.

[2]اسمه همّام بن غالب بن صعصعة بن ناجِيةَ بن عِقال بن محمد بن سُفيان بن مُجاشِع بن دارِم بن مالك (بن حنظلة بن مالك) بن زيد مَنَاةَ بن تَميم، والفرزدق لقب له حمله من وجهه المتجهّم، شاعر تميمي، وكان جدّه صعصعة فضلا عن كرمه ممّن يشترون الفتيات اللواتي كان اهلهنّ يهمون بوأدهنّ، وقيل انّه اشترى أربعماءة منهنّ، والفرزدق يفخر بهذه المكرمة عن جدّه، وهو وجرير والأخطل أشعرُ طبقات الإسلاميين، وهو المقدّمُ في الطبقة الأولى منهم، وكان جرير خصمه في الهجاء ، إلاّ أنّ كرم أهله وغناهم جعله يتمسّك بمآثر قومهم وكرمهم المسرف، عَرف الفرزدق بفسقه وشربه للخمر التي حرّمها الإسلام، وأيضا بكلّ ما ينطوي في هذه الأخلاق من عصبيّة وغلظة، توفي سنة 114 للهجرة

[3]هو غِياثُ بن غَوْث بن الصَّلْتِ بن الطّارِقَة، يُكنّى أبا مالك، لُقّب بالأخطل لأنّه هجا رجلا من قومه؛ فقال له: يا غلام، إنّك لأخطل، فغلبتْ عليه، والأخطل: السّفيه، فغلب عليه، وُلد الأخطل في بادية الحيرة حوالي سنة 20 للهجرة، وكانت أمّه مثل أبيه نصرانية، وهي من قبيلة إيّاد، ومن ثمّ نشأ نصرانيّا، وظلّ طيلة حياته على دينه، فلم يدخل في الإسلام. ظهرت موهبته الشّعرية مُبكّرا، واقترن بها سفه شديد، فكان يُكثر من هجاء النّاس، مدح الأخطل أمراء بني أميّة، وهم يغدقون عليه، وفي ديوانه مدائح مختلفة ليزيد وأخيه عبد الله ولابنه خالد، وعلى نحو ما كان الاخطل يُجيد المديح كان يُجيد نعت الخمر ودِنانها ونَدامها، بل قد شغف حبّا بها، حتّ ليقرّ أنّها السبب في منعه إعلان إسلامه، وقد ظلّ يُهاجي جريرا إلى أن توفي سنة اثنتين وتسعين للهجرة

[4] العصر الإسلامي، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط6(دت)، ص: 241.

5-3-دوافع عقلية: تعود إلى نمو العقل العربي ومرانه الواسع على الجدل والحوار والمناظرة في النِّحل السياسية والعقيدية وفي الفقه وشؤون التشريع

سادسا- موضوعات النقائض:

خاضت النقائض في موضوعات، هي الهجاء، والفخر، والحماسة، فهي تعدّ فنونا رئيسية لفن النقائض، وإلى جانب ذلك تناول الشّعراء أيضا الرّثاء، والنسيب، والسياسة، والمديح، وكانت هذه الفنون الفرعية من عوامل المناقضة وعناصرها. ومثال عن قيام النقيضة على فنّ الرّثاء قول جرير عندما ماتت خالدة بنت سعد من كليب أمّ ابنه حَزْرَة: (الكامل)

لَولاَ الحَيَاءُ لَعَادَنِي اسْتِعبارُ وَلَزُرْتُ قَبْرَكِ والحَبيبُ يُزارُ

ولقد نَظَرتُ وما تَمَتُّعُ نَظْرَة في اللَّحْدِ حيثُ تَمَكَّنَ المِحْفَارُ

نِعْمَ القَرينُ وَكُنْتِ عِلْقَ مَضِنَّة وارَى بِنَعْفِ بُلَيَّةَ الأحْجَارُ

عَمِرت مُكَرَّمَة المَسَاكِ وفَارَقت ما مَسَّهَا صَلَفٌ ولا إقْتَارُ

فردّ عليه الفرزدق يُفسدُ معانيه من نقيضة: (الكامل)

أَبْكَى الإلَهُ عَلَى بَلِيَّةَ مَنْ بَكَى جَدَثاً يَنُوحُ على صَدَاهُ حِمَارُ

كانتْ مُنَافِقةَ الحياةِ وَمَوْتُهَا خِزْيٌ عَلاَنِيَةٌ عَلَيْكَ وَعَارُ

سابعا-خصائص النقائض:

-الطول: تتّسم النقيضة بالطول، ذلك أنّ الشّاعر يعمد فيها إلى المزاوجة بين فنّي الهجاء والفخر، فيفتخر بنفسه وبقومه وأنسابهم ومثالبهم وأيّامهم، والدّفاع عن الأعراض وشؤون القبيلة، وفي المقابل يعمل على الحطّ من مستوى الخصم وقبيلته فيُعيّرهُ ويترصد سقطاته، حقّا أو باطلا.

-الإقذاع والفحش في الهجاء : يتعرّض المتناقضين إلى العيوب الخُلُقية كالفحش والبخل والغدر والزنا أكثر من تعرّضهم للعيوب الخَلْقِيّة، ففيها من الإفحاش في الهجاء ما تشمئزّ منه النفوس وتنفر

منه، وتستحي الألسن أن تذكره، على نحو مانجده في نقائض جرير والفرزدق، قال الفرزدق في أمّ جرير:

أَزْرَى بجَرْيِكَ أنَّ أُمَّكَ لَمْ تَكُنْ إلاَّ اللَّئِيمَ مِنَ الفُحُولَةِ تُفْحَلُ

قَبَحَ الإلَهُ مَقَرَّةً فِي بَطْنِهَا مِنْهَا خَرَجْتَ وكُنْتَ فيها تُحْمَلُ

ويهاجم جرير الفرزدق ويقول في أخته جعثن:

وافَاكَ غَدركَ بالزبير على منًى ومَجَرُّ جعثنكم بذاتِ الحَرْمَلِ

باتَ الفرزدقُ يَسْتَجيرُ لنفسهِ وعجَانُ جعثن كالطّريق المُعْمَلِ

–توليد المعاني والصّور وميلها إلى السخرية والفكاهة:

فالنقائض الأموية –كما رأينا– تطوّرت من الهجاء الجاهلي لتأخذ صورة جديدة مطبوعة بالفكاهة والضحك لأنّ تلك غايتها.

–ظهور السمات الإسلامية: ذلك انّ شعراء النقائض عاشوا في رحاب بيئة إسلامية فدخلت الألفاظ والمعاني الإسلامية في رحاب النقائض فخرا كانت أم هجاءً، أو فيما لابسهما من نسيب ورثاء. ومثال ذلك قول الفرزدق في نقيضته لجرير:

–ضَرَبَتْ عليكَ العَنْكَبُوتُ بِنَسْجِهَا وَقَضَى عليكَ بهِ الكتابُ المُنزَّلُ

– مقتبسة من قول الله تعالى: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾[1]

– **الميل إلى الاستقصاء وحشد الأيّام والحوادث:** تعدّ هذه الخاصية من مقوّمات فنّ النقائض، فهي تقوم بالأساس على حشد الأيام والوقائع، فتكون النقائض بذلك سجلا تاريخيّا لصفات القبائل وأيامها وحوادثها ورجالها المشهورين.

– **استخدام أسلوب المقابلة والموازنة.**

[1] الآية 41 من سورة العنكبوت.